فهنا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لمحة إلى لزام الحياة لما يدعوكم بكل وصل: أصل دون أي فصل فاصل.

والحياة الموعودة هنا بالدعوة ليست - بطبيعة الحال - هي الحياة الحاصلة قبل الدعوة والاستجابة، كالحياة الحيوانية والإنسانية الفطرية والعقلية أماهيه من حياة معطاة قبل أي دعاء واستجابة.

ثم وليست هي حياة طليق الإيمان أيضاً حيث المخاطَبون هم المؤمنون، إذاً فهي فوق أصل الإيمان بدرجاته المتكاملة على ضوء الاستجابة في مختلف حقول الدعوة الربانية، كالحياة الحاصلة بالجهاد في سبيل الله وهي ﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[١] قاتلاً ومقتولاً فـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢] وهذه حياة متميزة عن سائر الحياة لأهل البرزخ.

هذا، ولكن لا تختص الحياة الموعودة بحياة الشهداء، كما لا تختص الدعوة لما يحييكم بالجهاد، بل هي الدعوة العامة القرآنية بكل حقولها.

ذلك والإحياء بهذه الحياة: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٣] - ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[٤] - ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥]: أطوار من الحياة بعد حياة الإيمان: تثبيتاً للإيمان ومزيداً له وتأييداً بروح منه وسائر الحياة الطيبة علماً ومعرفة وإيماناً، فـ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[٦].

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٦) سورة محمد، الآية: ١٧.

وبصيغة واحدة المجاهدة في سبيل الله هي التي تحييكم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾[1].

إذاً فـ «استجيبوا... إذا دعاكم لما يحييكم» و«إذاً» هذه مستمرة على مدار الدعوات الربانية بالقرآن والسنة، فإنها تحييكم مهما اختلفت درجات إحيائها حسب درجات أحيائها وموادها، وقد شهد بحق هذه الحياة الرسولية والرسالية المحمدية من غير المسلمين كثير[2].

(١) سورة الصف، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) يقول الشاعر الفرنسي (لامارتين) ١٧٩٠ - ١٨٦٩ وهو من مشاهير الشعراء الفرنسيين وزعيم الحركة الرومنطيقية - يقول بحق هذا النبي العظيم: «إن حياة مثل حياة محمد وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وشدة بأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، وإيمانه بالظفر، وإعلاء كلمته، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية، إن كلّ ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعاً أو يعيش على باطل - فهو فيلسوف، وخطيب، ورسول، ومشرع، وهادي الإنسان، إلى العقل، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب، ومؤسس دين لا فرية فيه، ولا صور، ولا رقيات، ومنشئ عشرين دولة في الأرض، وفاتح دولة روحية في السماء وتمتلئ بها الأفئدة - فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ» (أخرجه المهندس زكريا هاشم زكريا: المستشرقون والإسلام ص ٢٧٢ - انظر كتاب أحمد السيد (محمد نبي الإنسانية) دار الشروق ص ٧٦.

ويقول ويل ديورانت - المؤلف الأمريكي، صاحب قصة الحضارة -: وإذا حكمنا للعظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به دياجير الهمجية حرارة الجو وجذب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الفرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كلّ ما كان يحلم به، واستطاع في جيل واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم. (قصة الحضارة - ترجمة محمد بدران - الجزء الثاني المجلد الرابع ص ٦).

وفي دائرة المعارف البريطانية تحت مادة «محمد»: محمد بن عبد الله مؤسس الدين الإسلامي - ولد في مكة عام ٥٧٠ ميلادية ومات عام ٦٣٢، وقليلون هم الرجال الذين أحدثوا في البشرية الأثر العميق الدائم الذي أحدثه محمد، لقد أحدث أثراً دينياً عميقاً لا يزال منذ دعا =

ثم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ حيلولة صالحة لمن يستحقها بتلك الاستجابة الإيمانية، وطالحة جزاءً وفاقاً للذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ: «يحول بين المؤمن والكفر ويحول بين الكافر والهدى»(١) فلو أن قلب المؤمن حاول التقلب إلى الردى حال بينه وبينها، ويعاكس أمر الكافر إلى الردى.

= إليه حتى الآن هو الإيمان الحي، والشريعة المتبعة لأكبر من سبع سكان العالم. على أن أثره التاريخي يبدو بالأكثر عندما نذكر أنه في أقل من عشرين سنة منذ بدأ دعوته قوّض دعائم إمبراطوريتين عقيدتين وهما الإمبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية، مؤسساً على أنقاضهما حضارة جديدة - ولقد أرسى منذ جاء بدعوته - التي هي عقيدة وشريعة - قواعد بناء المجتمع الاجتماعية والسياسية، وقد أعقب موته أن سجل خلفائه الأحاديث التي رويت عنه، وأدق التصرفات والأفعال التي قام بها، فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث نبراساً ومثلاً أعلى يحتذونه في حياتهم اليومية جيلاً بعد جيل (أحمد السيد: محمد نبي الإنسانية - دار الشروق ص ٧٢).

وجاء في كتاب (مختصر تاريخ الإنسانية) لمؤلفه هـ. ج. ويلز: كان يمكن لأي متنبئ تاريخي يستعرض حياة بشر في مستهل القرن السابع الميلادي، أن يتوقع بحق أنه لن تمضي بضعة قرون حتى تقع كلّ أوروبا وآسيا تحت سيادة المغول والتتار، فلم يكن في أوروبا الغربية أي إشارة تدل على إمكان قيام النظام فضلاً عن الوحدة، والإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية كانتا في طريقهما نحو الانحلال والدمار - ولكن هذا المتنبي كان سيخطئ في تقديره، فقد اشتعلت دنيا الصحراء والبدو بمائة عام من المجد عندما بسط العرب سلطانهم ومدوا حكمهم ولغتهم من اسبانيا إلى حدود الصين، مقدمين للعالم ثقافة جديدة، ومنشئين ديناً لا يزال حتى اليوم أحد القوى الحيوية في العالم - وكان محمد بن عبد الله هو الذي أشعل الجزيرة العربية ودفعها لتحقيق ذلك كله، والذي ظل حتى سن الأربعين لا يميز نفسه بشيء غير عادي عن بقية معاصريه، (أخرجه أحمد السيد في: محمد نبي الإنسانية، المصدر نفسه ص ٧٣).

(١) الدر المنثور ٣: ١٧٦ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: . . . ، وفيه عن ابن عباس في الآية قال: يحول بين المؤمن وبين معصيته التي يستوجب بها الهلكة فلا بد لابن آدم أن يصيب دون ذلك ولا يدخل على قلبه الموبقات التي يستوجب بها دار الفاسقين ويحول بين الكافر وطاعته فلا يصيب من طاعته ما يستوجب ما يصيب أولياءه من الخير شيئاً وكان ذلك في العلم السابق الذي ينتهي إليه أمر الله تعالى وتستقر عنده أعمال العباد.

ذلك، ومما يحييكم، الداخل في دعوة الله والرسول، ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام كما يروى[١].

وعلى أية حال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٢] فالله أقرب إلى قلوبنا منا إليها:

يار نز ديكر از من بمن است وين عجب تر كه من أزوى دورم

ذلك، فـ «كلٌّ ميسر.. صاحب النار ميسَّر لعمل النار وصاحب الجنة ميسر لعمل الجنة»[٣]: إذ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٤].

أجل، كلٌّ ميسر وليس مسيَّراً، وليست الحيلولة الربانية بين المرء وقلبه مؤمناً أو كافراً، إلا بما يختاره صاحبه تيسراً لما يهواه، دون ما يختاره الله له أو عليه تسييراً خلاف هواه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٥].

فالحيلولة الربانية بين المرء وقلبه تحلق على كل مرءٍ بقلبه، ولأن

---

(١) وممن أورده وصححه الحافظ أبو بكر بن مردويه على ما في تفسير اللوامع وكشف الغمة (٩٥) روى بإسناده مرفوعاً إلى الإمام الباقر عليه السلام أن هذه الآية قد نزلت في ولاية علي بن أبي طالب، ومنهم الترمذي في مناقب مرتضوي (٥٦) نقلاً عن ابن مردويه في المناقب.

(٢) سورة ق، الآية: ١٦.

(٣) المصدر أخرج أبو الشيخ عن أبي غالب قال سألت ابن عباس عن هذه الآية قال: قد سبقت بها عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ وصف لهم عن القضاء فقال لعمرو غيره ممن سأله من أصحابه: اعمل فكل ميسر قال: وما ذلك التيسر؟ قال صلى الله عليه وآله صاحب النار.
وفي نور الثقلين ٢: ١٤١ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: بين المؤمن ومعصيته أن تقوده إلى النار وبين الكافر وبين طاعته أن يستكمل بها الإيمان واعلموا أن الأعمال بخواتيمها، وفيه عن كتاب التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق، وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً ولا يستيقن القلب أن الباطل حق أبداً.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

القلوب هي أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء، فلا تفويض لعباد الله في أفعالهم كما لا جبر، ولله تعالى الدور الأصيل في تحويل القلوب عدلاً وفضلاً، حيلولة بين إمام الأئمة والمأمومين في مخمس الكيان الإنساني في هذا الحقل.

وليس ﴿ٱللَّهَ يَحُولُ﴾ يعني أنه بذاته يحول بين المرء وقلبه، فإنما هي علمه ومشيئته الحائلة بينهما، فصلاً بين المرء وبين قلبه، فإنه فصل بين قلبه كإمام الأئمة وبين المأمومين العقول والأفكار والحواس والأعضاء.

فحين يحنُّ قلب المؤمن خلاف هواه إلى شرٍّ أو يحن إلى ترك خير فـ ﴿ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ تقليباً له إلى خير أم ترك شر، ويعاكسه الكافر، قضيةَ الجزاء العدل.

فرغم أن القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء[1]، رغم ذلك لله المشية الحكيمة بين القلوب وسائر الخمسة تدبيراً صالحاً على ضوء ما يقدمه المرء من معدَّات وما يعنيه في أصل التصميم الصميم خيراً أو شراً، وصالح الحيلولة الإلهية هو حيلولة العلم فإنه أقرب إلينا منا، وحيلولة القيومية، فإنه أقوم لنا منا،

(١) وبنقل آخر في مستدرك نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء (مستدرك ١٧٦) ولكن الآية تؤيد ما ننقله في المتن كراراً، حيث المحاور الأصيلة هي القلوب، وحصائل العقول والأفكار والصدور لما تدخل في القلوب تغربل وتخلص.
وقد يوجه الوجهان توافقاً بينهما في وجهين، أن للعقول قوساً صعودياً وآخر نزولياً، فالصعودي أنها أسس الأفكار ثم الأفكار أسس القلوب ثم القلوب آمرة للحواس ثم الحواس آمرة للأعضاء.
والقوس النزولي أن القلوب تأمر العقول والعقول تأمر الأفكار والأفكار تأمر الحواس والحواس تأمر الأعضاء، فالآمرية الأخيرة إذاً هي للحواس حيث تأمر الأعضاء، ثم بداية الصعود من العقول، ثم نزول الأمر من القلوب إلى العقول إلى الأفكار. تأمل.

وحيلولة الإرادة إيجابياً أو سلبياً في صالحنا وطالحنا كما هو قضية العدل أو الفضل، توحيداً لربوبية التأثير، وحين يحول الله بين المرء وقلبه، فبأحرى له أن يحول بين المرء وكل قواته ومراداته، بين بصره ومبصره، بين سمعه ومسموعه، بين ذوقه ومذوقه، بين حسه ومحسوسه، وبين كل كيانه وما يهواه، وحيلولته بين المرء وقلبه هي حيلولة بينه وبين كل كيانه، وهو القائل ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1] منه إلى نفسه وحياته ككل، وهذه الحيلولة الشاملة هي من قضايا ملكه الطليق للكائنات كلها.

وليس يكفي للمرء أن يعقل صحيحاً، فكثير هؤلاء الذين يعقلون ثم لا تطمئن قلوبهم بما عقلوه لأن قلوبهم مقلوبة مطموسة مركوسة فلا تستجيب.

ذلك، وبوجه آخر تعني هذه الحيلولة أن الله لا يغيب عن أي قلب مهما تناكر وتجاهل، فقد يغيب عن القلب أي حاضر أو غائب ولا يغيب الله عنه قضية الفطرة المجبولة على معرفة الله، فلا عاذرة في عدم استجابة الله ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

فقد تعرفه القلوب، ويعرف هو القلوب وما في القلوب، وهو يقلبها كيف يشاء، فهو المرجع والملجأ في تقلب القلوب فالعقول فالأفكار فالحواس فالأعضاء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[2].

وهذا المقطع القاطع من آية الاستجابة هذه يحلِّق على جذور المعارف الربانية، قاطعاً أعذار المتجاهلين المتكاسلين دعوة الله، قالعاً غِرة النفاق، وغرور الإيمان الوفاق، أن المؤمن - أياً كان - ليس ليستقل في إيمانه فتزول به نكبة الغُرور نكسة للغَرور، وهو عبارة أخرى عن ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[3].

(١) سورة ق، الآية: ١٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

ذلك، ومن حيلولته تعالى بين المرء وقلبه قربه إليه أقرب من نفسه إلى نفسه، فـ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[١].

ومنها أن ينسيه ما ذكره أو يذكره ما نسيه، فإن القلب بين أصبعي الرحمان، ومنها أن يزيل عنه عقله وتميزه، حيلولة لإزالته، أم لتخفيفه، أم ولتثبيته، فلا فاعلية للقلب ولا عطلة إلا بإرادته تعالى حسب القابليات والفاعليات، وهكذا يحول بين قلب الكافر وبينه تجميداً لصميم قصده السيّئ الخطر، كما يحول بين قلب المؤمن وبين نفسه تأييداً له في فعل الخير وترك الشر تكويناً، كما ويحول تشريعاً بالأمر والنهي حيث الإيمان قيد الفتك.

وتلك الحيلولة المؤمنة تعني إمحاء ما يناحر الإيمان أو يُضعفه وكما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله تفسيراً لآية المحو والإثبات:

«يمحو الكفر ويثبت الإيمان، ويمحو النكرة ويثبت المعرفة، ويمحو الغفلة ويثبت الذكر، ويمحو البغض ويثبت المحبة، ويمحو الضعف ويثبت القوة، ويمحو الجهل ويثبت العلم، ويمحو الشك ويثبت اليقين، ويمحو الهوى ويثبت العقل على هذا النسق ودليله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[٢] محواً وإثباتاً»[٣].

حيلولات ربانية تناسب ساحة قدسه تعالى قضية وحدانيته الوحيدة غير الوهيدة فيما يحصل من خلقه أم لا يحصل.

ولعمر إلّهي الحق إنها صورة رهيبة يتمثلها القلب بين أصبعي الرحمان - رحمة وغضباً - يقلبه كيف يشاء حسب المساعي صالحة وطالحة

(١) سورة ق، الآية: ١٦.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.
(٣) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩٥ عنه عليه السلام.

لأصحاب القلوب.. صورة تستوجب اليقظة الدائمة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته، تحذراً من كل هاجسة فيه واجسة، تعلقاً دائماً بالله، واستجابة له ولرسوله مخافة تقلبه في سهوة أو غفلة أو دفعة، ففراراً إليه مما سواه.

ولقد كان رسول الله ﷺ على محتده القمة عند الله يكرِّر دعاءه: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فكيف بنا ونحن نحن المجاهيل الضعفاء الفالتون.

فـ «اللَّهم داحيَ المدحوات وداعم المسموكات، وجابل القلوب على خطريها: شقيها وسعيدها»[(١)] ثبت قلوبنا على دينك.

فقلوب المؤمنين المطمئنين بالله تتقلب إلى الرشد والنور، وقلوب مَن سواهم تتقلب إلى النار «قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعني سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها»[(٢)] «فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان وذلك ميت الأحياء» (٨٥) -.

فـ «أين القلوب التي وُهبت لله، وعوقدت على طاعة الله» (١٤٢) -.

«فلو شغلتَ قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونَقة، لزهِقت نفسك شوقاً إليها، ولتحملتَ من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا الله وإياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته (١٦٣) - و«أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر» (١٧١) -.

«وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه،

(١) (الخطبة ٧٠).
(٢) نهج البلاغة الخطبة ٨١ / ٢/ ١٤٣. وكذلك التي تتلوها بأرقامها.

وإن كان شراً واراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا له وماذا عليه، ولقد قال رسول الله ﷺ: لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (١٧٤) -.

«ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المَجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضله، وأسباباً ذُلُلاً لعفوه، فالله الله في عاجل البغي، وآجل وَخامة الظلم، وسوء عاقبة الكِبر، فإنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تُساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبداً، ولا تشوي أحداً، لا عالماً لِعلمه، ولا مُقِلاً في طمره، وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم» (١٩٠) -.

فـ «أحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوِّه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلِّله بذكر الموت، قرره بالفناء، وبصِّره فجائع الدنيا، وحذِّره صولة الدهر وفُحشَ تقلُّب الليالي والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين» (٢٧٠) -.

فيا لله من ذلك القلب المتقلب الذي احتل الإمامة الكبرى في كيان الإنسان ككل، فـ «لقد عُلِّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وذلك القلب - بضعة من روحه - وله موارد من الحكمة وأضداد من خلافها، فإن سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن مَلكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحَذَر، وإن اتسع له الأمن استلبته

الغِرَّة، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضَّته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشَّبَع كظَّته البِطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد» (١٠٨ ح).

و«إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي» (١٩٣ ح) -.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾:

إنها فتنة شاملة حاملة الذين عدلوا إلى الذين ظلموا، أوَ ليس هذا ظلماً بالذين لم يظلموا أن يسوَّوا بالذين ظلموا في هذه الفتنة؟ أم كيف تُتقى وتقوى العدول هي خير وقاية، فإن كان هؤلاء غير متقين فهم من الذين ظلموا.

وإن كانوا متقين فكيف - إذاً - يتقون؟ إنها فتنة وليست - فقط - عذاباً حتى لا يشمل غير الذين ظلموا، فتنة شاملة واختبار هي للذين ظلموا شرٌّ ودمار، ولكنها لغير الظالمين فتنة عليهم أن يتقوها ويقوا أنفسهم منها حتى يتخلصوا عنها ناجحين، مهما هلكت فيها أبدانهم وَفنيت أموالهم.

فالفتن الربانية أنماط وأشكال يتعاكس الأمر فيها للذين اتقوا على الذين ظلموا، فقد تكون فتنة خير وسعة، وأخرى فتنة شر وضيق ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1] فالذين آمنوا واتقوا هم ناجحون والذين فسقوا وطغوا هم ساقطون: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾[2].

فمن جملة الفتن التي ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ فتنة الخلافة

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٩.